مقياس: النقد الأدبي العربي المعاصر

السنة الثانية ليسانس (دراسات أدبية)

المحاضرة الخامسة: المنهج السيميائي -1 -

1- المصطلح والمفهوم:

تعود السيميولوجيا في أصها اللغوي الغربي إلى اللغة الإغريقية، وهي مركبة من (Sémion) ومعناه العلامة، و(Logos) ويعني علم، أما في العربية فهي مأخوذة من السمة والوسم والسيمياء وكلها يعني العلامة والدلالة، وقد ورد في لسان العرب أنها "السيمياء: مشتقة من الفعل (سام) يدل على ذلك قولهم: سوم فرسه؛ أي جعل عليه السمة، وقيل: الخيل المسومة، هي التي عليها السيمة؛ والسومة وهي والعلامة"، وجاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح:29]، وقوله: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ﴾ [الأعراف:48]، ونلاحظ أن الدلالة التي حملتها هذه اللفظة في القرآن هي ذات الدلالة التي ذكرها ابن منظور، كما ارتبطت بالتعرّف على الشيء.

أما في الاصطلاح النقدي فقد أجمع الباحثون على أن السيميولوجيا هي العلم الذي يدرس العلامات والرموز والإشارات، ويحاول الكشف عن الدلالات الظاهرة والخفية للأنظمة اللغوية وغير اللغوية.

ويعود الفضل في نشأة هذا العلم إلى مدرستين عتيدتين؛ الأمريكية التي يمثلها الفيلسوف الأمريكي شارل ساندرز بيرس (Charles Sanders Peirce) (1839-1914) الذي أطلق عليه سيميوطيقا (Sémiotique)، وقد استعار المصطلح من التسمية التي أطلقها جون لوك () على علم خاص بالعلامات ينبثق عن المنطق، فهو أكثر ارتباطا بالفلسفة وقد التزم به الأمريكيون بعده، والثانية هي المدرسة الفرنسية التي يمثلها العالم اللغوي السويسري دي سوسير (**F. DE. Saussure**) (1857-1913) الذي أطلق عليه السيميولوجيا (Sémiologie)، والتزم به الأوربيون بعده.

وقد طرح المصطلح إشكالات عديدة لدى الدارسين العرب أثناء محاولتهم نقله إلى اللغة العربية، فتعددت مقابلالته لديهم؛ إذ عرف هذا العلم فوضى مصطلحية كبيرة، والجدول الآتي يوضح ذلك:

- مصطلح sémiologie عند النقاد العرب المحدثين:

المصطلح المترجم	اسم المترجم	المرجع
سيميولوجيا	-صلاح فضل -عبد الله الغذامي	-نظرية البنائية، شفرات النص، مناهج النقد المعاصر. -الخطيئة والتكفير .
علم السيمياء	عبد الرحمان الحاج صالح	المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات
السيميائية	خلدون شمعة	المنهج والمصطلح
علم العلامات	عبد السلام المسدي	الأسلوب والأسلوبية
علم العلاقات	محمد عزام	الأسلوبية
علم الدلائل	عبد الحميد بورايو	ترجمة (مدخل إلى السيميولوجيا) لدليلة مرسلي وأخريات
علم الإشارات	ميشال زكريا	الألسنية

- مصطلح sémiotique عند النقاد العرب المحدثين:

المصطلح المترجم	اسم المترجم	المرجع
السيميائية	عبد السلام المسدي	قاموس اللسانيات
سيميائيات	سعيد بنكراد	ترجمة كتاب (التأويل بين السيميائيات والتفكيكية)
علم السيميولوجيا	صلاح فضل	بلاغة الخطاب وعلم النص
السيميوطيقا	محمد مفتاح	تحليل الخطاب الشعري
علم العلامات	مجدي وهبة	معجم المصطلحات الأدب
السيماطيقا	سمير حجازي	قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصرة
نظرية الإشارة	سمير كرم	ترجمة (الموسوعة الفلسفية)
الإشارية	عبد المالك مرتاض	النص الأدبي من أين وإلى أين

2- مدرسة دي سوسير:

في عام 1916م صدر كتاب (دروس في علم اللغة العام) للعالم السويسري فرديناند دي سوسير، ليحدث تغييرا كبيرا في مسار الدراسات اللغوية، وفي هذه المحاضرات نص دي سوسير على أن : "اللسان نسق من العلامات المعبرة عن أفكار، وهو بذلك شبيه بأبجدية الصم البكم، وبالطقوس الرمزية والإشارات العسكرية، إلا أنه يعد أرقى هذه الأنساق؛ من هنا تأتي إمكانية البحث عن علم يقوم بدراسة هذه العلامات داخل الحياة الاجتماعية (...) ويمكن أن نطلق على هذا العلم السيميولوجيا، وستكون مهمته هي التعرف على كنه هذه العلامات وعلى القوانين التي تحكمها (...) ولن تكون اللسانيات سوى جزء من هذا العلم العام".

فالسيميولوجيا حسب سوسير علم عام تشكله مجموعة من الأنساق أو الأنظمة التي تكون لسانية وغير لسانية (لغوية وغير لغوية)، واللسان جزء من هذا العلم العام، وهو أرقى هذه الأنساق ولذلك تستقي الأنساق الأخرى (غير اللسانية) منه مفاهيمها وتعبيراتها إلى أن تصل الدراسات السيميولوجية إلى قوانين عامة.

ويحدد دي سوسير وظيفة هذا العلم بدراسة العلامات داخل الحياة الاجتماعية للتعرف على كنهها والقوانين التي تحكمها.

وضمن ذلك طرح مصطلح الدليل اللغوي (العلامة اللغوية)، ومفهومه الذي يدحض الفكرة القائلة بأن الكلمات تتطابق مع الأشياء الدالة عليه، بقوله باعتباطية (Arbitraire) العلاقة بين طرفي العلامة اللغوية (غياب المنطق العقلي).

فالعلامة تتكون من عنصرين مترابطين ترابط وجهي الورقة هما الدال والمدلول؛ فالأول هو الصورة السمعية المكونة من مجموعة من الأصوات التي تنتقل إلى دماغ المتلقي فتثير تصورا أو أثرا نفسيا ما لديه، وهو ما يمثل الصورة الذهنية، فالعلامة عند سوسير ثنائية المبنى تتكون من دال ومدلول؛ أي تجمع بين الصورة الصوتية (السمعية) والصورة الذهنية ولا تجمع بين الشيء ومسماه، وتكتسب العلامة أهميتها من خلا ل علاقتها بالعلامات الأخرى داخل نظام النص.

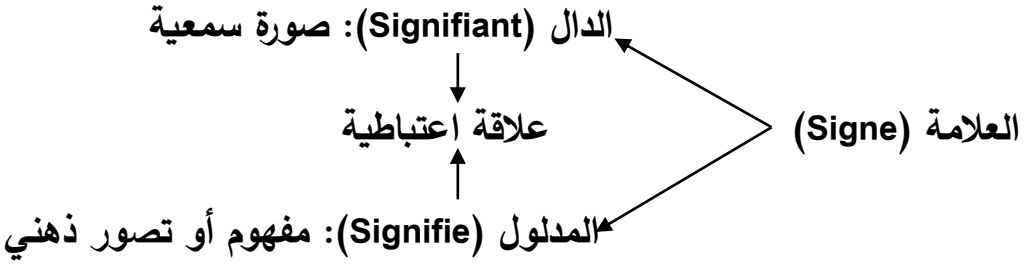

لقد شكل مفهوم العلامة عند دي سوسير في توجهه اللساني منطلقا مهما للمقاربات السيميائية التي جاءت بعده، وطورت مفاهيمه وتصوراته.

3-مدرسة بيرس:

يذكر بيرس أنه صاحب الأسبقية في الإشارة إلى علم السيميوطيقا بقوله: "أنا على ما أعلم الرائد أو بالأحرى فاتح الباب في توضيح وكشف ما أسميه بالسيميوطيقا؛ أعني مذهب الطبيعة الجوهرية والتنوعات الأساسية للدلالة الممكنة"

وقد ربط بيرس السيميوطيقا بالمنطق؛ إذ رأى أن "المنطق بمعناه العام ما هو إلا اسم آخر للسيميوطيقا"، وقد وضع بيرس أسس السيميوطيقا وفق رؤية عامة ترى كل شيء في الوجود والكون علامات سيميوطيقية وكيانات رمزية مترابطة مع بعضها البعض

- **العلامة عند بيرس:**

نظرا لأن سيميوطيقية بيرس هي نتاج سياق فلسفي ارتبط بالمنطق الرياضي؛ فإن موضوع العلامة عنده كان متشعبا ومتفرعا، فالعلامة عنده ثلاثية المبنى تتكون من ماثول (ممثل) يحيل على موضوع عبر مؤول، وهي مبنية على قاعدة رياضية تقول: إن كل نظام لابد أن يكون ثلاثيا، ويرى أن العلامة "ليست علامة إلا إذا كانت تستطيع أن تترجم نفسها إلى علامة أخرى"، ويسمي بيرس سلسلة الإحالات أو السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة (وفق العلاقة بين عناصر العلامة): السميوز (Sémiosis) وهو النشاط الترميزي الذي يقود إلى إنتاج الدلالة.

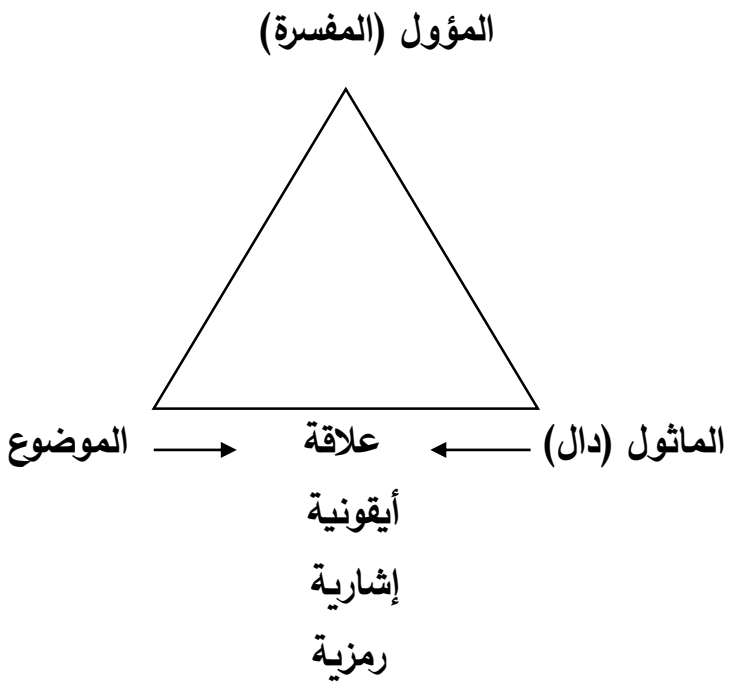

وتبعا لهذا المفهوم صنفت العلامة إلى ثلاثة أنماط تتشكل من خلال نوعية العلاقة الّتي تنسجها العلامة مع موضوعها في علاقة مع الممثّل بوصفه أوّلا، وفي علاقته مع الموضوع بوصفه ثانيا، وفي علاقته مع المؤوّل باعتباره ثالثا؛ وهذه الأنماط الثلاثة هي:

أ- **الأيقونة:** إنّ الأيقونة (Icone) هي تلك العلامة الدالّة على موضوعها عن طريق المشابهة؛ سواء كانت المشابهة بواسطة الرّسم أو المحاكاة، إنّها علامة تحتوي على خصيصة تجعل لها دلالة، رغم أنّ موضوعها غير موجود مثل الصور والبيانات والتصاميم والخرائط وغير ذلك من الأيقونات. وفي هذا الشأن يعرّف بيرس الأيقونة بأنّها العلامة الّتي تشير إلى الموضوع الذي تعبّر عنه عبر الطبيعة الذاتية للعلامة فقط. وتمتلك العلامة هذه الطبيعة سواء وجدت الموضوعة أم لم توجد، والعلاقة الّتي تربط الأيقونة بموضوعها هي علاقة المشابهة.

ب- **القرينة:** إنّ القرينة (Indice) أو ما يترجمها البعض بالشاهد أو المؤشّر هي كما جاء تعريفها عند بيرس: علامة تشير إلى الموضوع الذي تعبّر عنه عبر تأثّرها الحقيقي بذلك الموضوع، فالشاهد أو القرينة هو علامة ترتبط بموضوعها ارتباطا سببيا، وكثيراً ما يكون الارتباط فيزيقيا أومن خلال التجاور، مثل دلالة الحمّى على المرض، والغيوم على المطر، والدخان على النار، ودلالة آثار الأقدام على أنّ هناك من مرّ من هنا، ودلالات النصب الّتي تعطي إشارات على الطريق إلى

غير ذلك. ويكمن الفرق بين الأيقونة والقرينة في أنّه إذا كانت الأيقونة لا تفقد خصوصيتها حينما ينعدم موضوعها، فإنّ القرينة هي علامة تفقد الميزة الّتي تجعلها علامة إذا انعدم موضوعها، لكنها لا تفقد هذه الميزة إذا لم يوجد تعبير.

وقد تدلّ القرينة على موضوعها بصورة غير مباشرة، حيث قد تفصل بينهما قرينة أخرى أو مجموعة قرائن، كأن يكون الدخان قرينة لوجود النار، والنار قرينة لوجود الإنسان، والإنسان قرينة لوجود الطعام وهكذا دواليك. ومن هذا المنطلق يميّز بيرس بين نوعين من القرائن؛ قرائن أصلية؛ وهي تلك الّتي تشير إلى موضوعها مباشرة، وقرائن منحدرة؛ وهي الّتي تشير إلى موضوعها بواسطة سلسلة من القرائن المتّصلة.

ج- الرمز: يعدّ الرمز (Symbol) أكثر العلامات تجريدا، وذلك لأنه علامة إنسانية محضة، تدل على موضوعها بالوضع عكس ما عليه كلّ من الأيقونة والقرينة، ومن أمثلته شكل الصليب في الدلالة على النصرانية، وشكل الهلال في دلالته على الإسلام، وشكل الميزان في دلالته على العدالة.

وقد عرّف بيرس الرمز بأنّه "علامة تشير إلى الموضوع الذي تعبّر عنه عبر عرف، غالبا، ما يقترن بالأفكار العامة الّتي تدفع إلى ربط الرمز بموضوعه.

فالرمز، بمعناه العام، يرتبط بالفعل الإنساني القادر على الولوج إلى أعماق الأشياء واستبصار مكنوناتها. ومن ثمّ فهو ليس إشارة بسيطة، كما هو الشأن بالنسبة للأيقونة والقرينة، بل هو عنصر مهمّ في تحريك البنية الكلّية للغة الشعرية.

4-اتجاهات السيمياء:

أ- سيمياء التواصل:

تقوم سميولوجيا التواصل على الوظيفة الأساسية للسان وهي التواصل، وتهدف عبر علاماتها وأماراتها وإشاراتها إلى الإبلاغ والتأثير على الغير عن وعي أو غير وعي، وبتعبير آخر تستعمل السيميولوجيا مجموعة من الوسائل اللغوية وغير اللغوية لتنبيه الآخر والتأثير عليه عن طريق إرسال رسالة وتبليغها إياه، ومن هنا فالعلامة تتكون من ثلاثة عناصر: الدال والمدلول والوظيفة القصدية،

كما أن التواصل نوعان: تواصل إبلاغي لساني لفظي (اللغة)، وتواصل إبلاغي غير لساني (علامات المرور مثلا).

ويمثل هذه السيميولوجيا كل من بريطو Prieto ومونان Mounin وبويسنس Buyssens الذين يعتبرون الدليل مجرد أداة تواصلية تؤدي وظيفة التبليغ وتحمل قصدا تواصليا، وهذا القصد التواصلي حاضر في الأنساق اللغوية وغير اللغوية. كما أن الوظيفة الأولية للغة هي التأثير على المخاطب، ويكون التأثير مقصودا أو غير مقصود، ويستخدم في ذلك مجموعة من الأمارات والمعينات Indications التي يمكن تقسيمها إلى ثلاثة:

– **أمارات عفوية:** وهي وقائع ذات قصد مغاير للإشارة، تحمل إبلاغا عفويا وطبيعيا مثل: لون السماء الذي يشير بالنسبة لصياد السمك إلى حالة البحر يوم غد.

– **أمارات عفوية مغلوطة:** وهي التي تريد أن تخفي الدلالات التواصلية للغة؛ كأن يستعمل متكلم ما لكنة لغوية ينتحل من خلالها شخصية أجنبية ليوهمنا بأنه غريب عن البلد.

– **أمارات قصدية:** تهدف إلى إبلاغ رسالة معينة مثل: إشارات المرور.

وكل خطاب لغوي وغير لغوي يتجاوز الدلالة إلى الإبلاغ والقصدية، يمكننا إدراجه ضمن سيميولوجيا التواصل.

ب–سيمياء الدلالة:

يعد رولان بارت خير من يمثل هذا الاتجاه، وهو يرى أن البحث السيميولوجي هو دراسة الأنظمة والأنظمة الدالة؛ فجميع الوقائع والأشكال الرمزية والأنظمة اللغوية تدل، فهناك من يدل باللغة وهناك من يدل دون اللغة المعهودة، بيد أن لها لغة خاصة؛ إذ عد بارت اللغة الوسيلة الوحيدة التي تجعل الأنساق غير اللفظية دالة، فمن الصعب تصور إمكان وجود مدلولات أشياء أو صور خارج اللغة، فلا وجود لمعنى إلا لما هو مسمى، وعالم المدلولات ليس سوى عالم اللغة.

ولذلك انتقد بارت في كتابه (عناصر السيميولوجيا) الأطروحة السوسيرية التي ترى أن اللسانيات فرع من السيميولوجيا، وقال بالعكس "السيميولوجيا هي التي تشكل فرعا من اللسانيات".

أما عناصر سيمياء الدلالة لدى بارت فقد حددها على شكل ثنائيات من الألسنية البنيوية وهي: اللغة والكلام، والدال والمدلول، والمركب والنظام، والتقرير والإيحاء (الدلالة الذاتية والدلالة الإيحائية).

وهكذا حاول رولان بارت الانطلاق من اللسانيات لمقاربة الظواهر السيميولوجية، كأنظمة الموضة والأساطير والإشهار...، فحين يدرس الموضة مثلا يطبق عليها المقاربة اللسانية تفكيكا وتركيبا، من خلال استقراء معاني الموضة ودلالات الأزياء، وتعيين وحداتها الدالة ومقصدياتها الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والثقافية، والشيء نفسه في قراءته لأنظمة أخرى كالطبخ والصور الفوتوغرافية والإشهار واللوحات البصرية، وكذلك بالنسبة إلى المقاربة النصية للإبداع الأدبي والفني وفق سيميولوجيا الدلالة؛ إذ يبحث القارئ فيها عن الأنظمة الدالة كالأساطير والرموز والاستعارات ودلالات الأوزان الشعرية والمعجم اللغوي...

ج- سيمياء الثقافة:

استفاد هذا الاتجاه من الفلسفة الماركسية، وقد عرفت به مدرستان مدرسة موسكو تارتو، والمدرسة الإيطالية، وأهم رواده: يوري لوتمان، وأمبرتو إيكو، وجوليا كريستيفا.

ونعني بسيميولوجيا الثقافة أو الثقافات (Sémiotique de la culture) دراسة الأنظمة الثقافية باعتبارها دوالا وعلامات وأيقونات وإشارات رمزية لغوية وبصرية، بغية استكناه المعنى الثقافي الحقيقي داخل المجتمع، ورصد الدلالات الرمزية والأنتروبولوجية والفلسفية والأخلاقية.

بحيث تعد الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساقا دلالية تتضمن عدة أنساق (لغات، فنون، عقائد، طقوس، عادات، وغير ذلك)؛ ووفق ذلك يمثل سلوك الإنسان تواصلا داخلا ثقافة معينة، تعطيه دلالة معينة.

ولا تقتصر على ثقافة واحدة أو خاصة، بل تتعدى ذلك إلى ما يتسم بطابع عام، قوامه: الانفتاح، والتعايش، والتواصل، والتكامل، والتعددية، والتهجين، والاختلاف، والتنوع، والتسامح، والتعاون، والمثاقفة، وتداخل النصوص (التناص)، وتعدد اللغات والثقافات...

وهناك قضايا مهمة شتى يمكن أن تشتغل عليها سيميوطيقا الثقافة، مثل: الإبداع، والآداب، واللغة، والفن، والفلكلور، والترجمة، والأدب المقارن، والتواصل، وعلاقة الأنا بالآخر، وأدب الصورة، وأدب الرحلة...

ويمكن أن نمثل لاتجاهات السيمياء بصورة عامة بالشكل الآتي: